

مكتبة الأطفال العربية

بعض الإغترابات الشخصية والمعلومات التوجيهية

للاستاذ كامل كيلاني

زعموا أن ثلاثة أمراء إخوة أشقاء ، خرجوا يتنافسون في مهر بنت عمهم السلطان ، بمد أن تواءموا على الاجتماع آخر العام في مكان بعيد ليروا : أيهم ظفر بأنفس هدية للأميرة . فلما التقوا رأوا أحدهم قد ظفر بمنظار سحري يرى فيه الناظر كل ما يدور بخلفه ، ولو كان في أقصى الدنيا . وظفر ثانيهم ببساط سحري يحمل راحته معلقاً به في كل جو من الأجواء فيبلغه غايته في لحظات يسيرة . وظفر ثالثهم بتفاحة شافية تبرىء من السم وتعيد الحياة إلى من أشرف على التلف . ونظروا في المنظار فإذا الأميرة على فراش الموت تحتضر . فأسرعوا إلى البساط ، فإذا بهم عندها في الحال . وأدناوا التفاحة منها ، فشفيت على الفور . وحاولوا أن يعرفوا : أيهم صاحب الفضل في شفائها فلم يهتدوا إليه . فلولا المنظار لما عرفوا مرضها الخطير ، ولولا البساط لمكنت قبل أن يصلوا إليها ، ولولا التفاحة الشافية لما كان لوصولهم فائدة . فإذا تقصت واحدة من هدايا الأسطورة ضاع كل أمل في شفاء الأميرة . ولعل في هذه القصة مثلاً دقيقاً يوضح ما يجب على من يتصدى للكتابة للأطفال أن يهدف إليه ويحمله نصب عينيه وحفل أذنيه

إن تحبيب الكتاب إلى نفس الطفل هو أول الوسائل لتكثينه من القراءة . ومتى ظفر بهذه الناية ظفر بالمنظار السحري الذي يرى صاحبه كل ما يريد أن يراه . أما الأسلوب القصصي الماحر فهو بساط الريح الذي ينتقل بالقارئ إلى أبعد الآفاق الفكرية في لحظات يسيرة ، ويظهر به على أجنحة الخيال البديع معلقاً به في سماء الحقائق ، دون أن يلحق به كلال ولا جهداً . أما التفاحة الشافية فتشتمل فيما تتركه القراءة النافعة من آثار نفسية دائمة ، تشفى سموم الجهالة وتبرىء من الزهات المارمة التي تسجل بصاحبها إلى الهلاك وتقذف به إلى الهاوية . ولتقف عند

أول هذه الأهداف الجلية لحظة قصيرة ، فذا تتسع هذه الرقعة المخططة لغيرها لتقف عند الخطوة الأولى ، وهي تحبيب القراءة إلى الطفل ، وتمكين الفصحى من نفسه ، وحمايته مما كان يضرنا من البيان المشوه المضطرب ، وتجنبه ذلك الشر المستطير من سيل العامية الجارف الذي كان يفرقنا في مستهل نشأتنا الثقافية ، ولا يزال يضر الكثيرين من ناشئة اليوم ورجال الغد ، فيقضي على مواهبهم البليغة — أو يكاد — في زمن حدائهم . ولتعد لهم بياناً عربياً خالماً يطبع الطفل على الفصحى منذ طفولته المبكرة ، حتى إذا كبرت سنه صارت له الفصحى — كما كانت لغيره من أسلافه العرب في عصور القوة الأولى — سليقة وطبعاً ، وأصبح البيان العربي متأصلاً في نفسه عادة وملكة . وبرى من المعجزة المنشئة بين شباب مصر وفتيانها .

أما السبيل إلى هذا الحلم الجليل ، فتحقيقها ميسور غير مستحيل .

إننا إذا راقبنا كلام الطفل وهو في مستهل طفولته ، رأيناه يلجأ — كما قلت في بعض التناسبات منذ عشرين عاماً — إلى تكرار الجمل إذا قص علينا خبراً ، كأنما يتثبت من معانيها في ألفاظها المكررة . فلماذا لا نكتب له وهو في هذه السن محالين أسلوبه الطبيعي في تكرار الجمل والألفاظ لتثبت المعاني في ذهنه تثبيتاً ؟ ولماذا لا نكرر له الجمل برشاقة ليسهل عليه قراءتها اذلك أجدر بنا وأليق فإن لكل مقام مقالا .

ومن الحقائق المروقة أن الطفل — في هذه المرحلة — ملول يتهيب الكتاب ، فلتنزع من نفسه هذا الملل ، ولنحبيب إليه الكتاب بكل وسيلة ، ولنبسط له الأسلوب بتسليطاً أكثر من الصور الجذابة الشائقة التي تسترعى انتباهه ، لنشره أن الكتاب تحفة تهدي إليه إهداء ، وليس واجباً يكلفه تكليفاً . فإن العطل — إذا ساء ظنه بالكتاب — صعب اجتذابه إليه بمد هذا .

وقد وفق أكثر من تصدوا لتأليف كتب الأطفال توفيقاً مهيئاً في تشييز القراءة إلى نفوسهم وتنفيرهم من المطالعة ، فأصبحوا يفتنون الكتاب أشد الفت ، ويهربون من قراءته ، لأن المؤلفين لم يراعوا سن الطفل وميوله ورغباته . ولم ينزلوا أو لم

عليه قراءة السطر الثاني والثالث والرابع وهكذا ، لأن الألفاظ لا تكاد تتغير في الجمل إلا بقدر يسير .

وقد جاءت نصب عيني قصة الرجل الذي كان يحمل الثور ماعداً به درج سلم عال وهابطاً به دركه ، دون أن يبدو عليه شيء من آثار التعب والجهد . فلما سئل في هذا قال : لقد تعودت حمل الثور منذ ولادته كل صباح وما زلت أكبر ويكبر الثور معي ويزداد نمواً كل يوم زيادة قليلة مضطردة ، حتى اكتمل نمائنا . ولم أشعر أن وزن الثور قد زاد يوماً عما كان في سابقه ولم أحس له نقلاً إلى اليوم .

كانت هذه القصة نواة صالحة لمكتبة الأطفال . فبدأنا بتسليّة الطفل متدرجاً به تدرجاً بطيئاً لا يكاد يشعر به ولا يحس له أثراً ، مستعيناً على هذا الغرض بالصور الملونة الجذابة والشكل الكامل والألفاظ السهلة . حتى إذا اطمأن الطفل إلى الأسلوب السهل ، وامتلأت نفسه ثقة بقدرته على القراءة ، انتقلت به إلى المرحلة التالية ، فزجت له التسلية بالفائدة ثم لا أزال أنتقل به خطوة بعد خطوة حتى يرى في فنون المعرفة وحدها متعة وتسلية ، لا يملها شيء من فنون التمتع وضروب التسلية . ولم أقصر في تحبيب القصص إليه وتعوده النطق بالمصحيح من الألفاظ ، وتدريبه على الأخذ بالمصحيح من الآراء ، فإن الخطأ اللفظي كالخطأ المعنوي إذا انطبع أحدهما أو كلاهما في ذهن الطفل منذ القراءة الأولى صعب اقتلاعه ، في قابل أيامه . ولا ممدى لنا عن ترغيبه — بكل ما نملك من الوسائل — في الأسلوب الرائع والمثل الصالح جميعاً . فلا تسمح قط في عبارة واحدة تقلل من شأن لنته ، أو تصغر من جلال القيم الأخلاقية .

إن تحبيب الكتاب وتحبیر الأسلوب الصالح وتثبيت الفضائل في نفس الطفل ، هي الأهداف الثلاثة التي ترمى إليها مكتبة الأطفال ولا بد من اجتهادها لبلوغ الغاية المرجوة ، كما اجتمعت هدايا الأسراء الثلاثة لشفاء الأميرة . فإذا نقص واحد منها تهدم البنيان كله ، وذبحت جهودنا على غير طائل . وهذه هي الحوافز

— على الحقيقة — محجوزاً عن النزول إلى مستواه ، ومخاطبته باللغة التي يفهمها وترتاح إليها نفسه . ومن الإنصاف أن نقرر — بصراحة — أنهم لم يصفوا كتبهم على نسق خاص أو منهج بعينه ، وأنهم في تأليفهم لم يتشبعوا بفكرة فنية تنظم الكتاب وتؤلف بين أجزائه . لأنهم يقنمون بتصديد موضوعات الكتاب — كيما اتفق لهم أن يتصيدوها — فيخرج الكتاب خليطاً مضطرباً لا تؤلف بين أجزائه فكرة بعينها ولا يتناسب أسلوبه مع مدارك الأطفال .

إن الطفل ميال بطبعه — إلى الحكايات والقصص ، وهو — بفريرته — مفتون برؤية الصور الجذابة فلنختر له منها ما يناسب سنه ، ويتفق وميوله ورغباته وتفكيره . أما الفكرة التي انتظمت مكتبة الأطفال فهي « التكرار » بكثر في أولها ثم يقل شيئاً فشيئاً — كلما تقدم الطفل في القراءة حتى يصل إلى قراءة الأسلوب الموجز الذي لا تكرر فيه بلا مشقة ولا إعنات . وقد تدرجت بالطفل في هذه المكتبة حتى يكون آخر جزء من كل مجموعة ممهداً لقراءة أول جزء من أجزاء المجموعة الأخرى . فإذا أتم هذه المكتبة اسلمته إلى مكتبة الشباب ، وكانت له جسراً يسهل العبور إلى ما تحويه من كتب الأدب ودواوين العرب في سهولة ويسر .

وإنما عمدت في الأجزاء الأولى من مكتبة الأطفال إلى التكرار عمداً بعد أن أفنعتني التجارب العملية والاختبارات الشخصية أنه أصلح أسلوب يلائم الطفل الناشئ ويشجعه على القراءة . ولا غرو في ذلك فإن الطفل الناشئ لا يقرأ الكلمة إلا بجهد كبير . ولا يتم السطر إلا بشق النفس . فلنقتصد جهدنا في استعمال الألفاظ الجديدة . ولنؤلف من الألفاظ القليلة التي يقرأها الكبير في بضعة أسطر — عدة صفحات كاملة لتدخل في روعه أن القراءة ليست صعبة كما يتوهم ، وليست شاقة مضمية ، كما ألفها في الكتب الأخرى ، بل هي سهلة ميسورة ، وهي — إلى سهولتها ويسرها — ممتعة شائقة ، تملأ نفسه بهجة وانشراحاً ، وتعلمه العمل بثقة في نفسه إذ يرى أنه يقرأ صفحة كلمة بجهد يسير ، فهو لن يتم قراءة السطر الأول حتى يسهل